تطور دور الكتب العربية العامة

منذ نشأتها حتى اليوم (١)

إن في تطور دور الكتب العربية خلال التاريخ منذ نشأتها حتى اليوم شاهداً على أنها تمشت جنباً إلى جنب مع حاجات العصور وقامت بسمتها الثقافية وفقاً لتلك الحاجات .

خرج العرب من جزيرتهم وليس بين أيديهم من كتاب إلا القرآن الكريم فراحوا يخترقون البلدان فاتحين معتمدين على هذا الكتاب يجدون فيه ما يطلبون ولكن لم ينقض زمن طويل عليهم حتى دعاهم ذكاؤهم الفطري الى دراسة العلم ومعرفة أخبار المتقدمين وآثارهم فأقبلوا على كتب الاقدمين وشرعوا يترجمونها الى لغتهم ووصل بهم الامر في ذلك الى فتح دار للترجمة منظمة عليها حفاظ وكتاب ومترجمون وكان ذلك في عصر هارون الرشيد . سميت هذه الدار بدار الحكمة او بيت الحكمة ، والحكمة تشمل علوم الاقدمين العقلية أي الفلسفة بفروعها والطبيعيات والرياضيات . أحدثت هذه الدار كما قلنا للترجمة ولكن الترجمة لا تكون إلا من الكتب ولا تكمل وتحسن إلا إذا كان هنالك ما يساعد المترجمين على فهم الكتب التي يترجمونها ، أي إذا وجد مع الكتب المترجمة كتب تشرحها أو تعلق عليها او تقاربها بالمادة

(١) كلمة محافظ دار الكتب الظاهرية السيد يوسف العش وهي خلاصة أطروحة يؤلفها ليقدمها في هذه السنة الى جامعة السوربون بباريس .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

والبحث ، فكان على من أوجد دار الحكمة أن يؤهلها بكتب الحكمة ، وكان ذلك ؛ فقد غنم هارون الرشيد في واقعة عمورية مقداراً كبيراً من كتب الأقدمين أضافه إلى ما كان عنده من كتبهم ، وكوّن بها جميعا دار الحكمة ؛ فتلك الدار قد جمعت إذن قبل كل شيء كتباً وتكونت فيها خزائن للكتب ، فكانت أول مكتبة عربية أمّها القراء والمطالعون والنساخ مستفيدين كلٌ في ناحيته من كتبها سواء منها العربية المترجمة أو الأجنبية غير المترجمة أو العربية الخالصة .

فدور الكتب العربية إذن نشأت نشأتها الاولى على شكل دار للترجمة جُمعت فيها الكتب وهيئت للعلماء والبحاثين .

ومازالـــ الامر على ذلك حتى كثرت الكتب المترجمة وعمّت وانتشرت وأصبحت مُهمة دور الكتب ثانوية ، فكان من الواجب إذن أن يحل محلها شيء آخر ، وماذا يكون هذا الشيء ؟ إن الكتب والمؤلفات العربية كانت قد أخذت في الانتشار في ذلك العصر انتشاراً كبيراً ، وموضوع الكتب العربية هو العلم العربي حقاً ، والعلم عند العرب الدين والأدب والتاريخ ، فكان من الواجب إذن أن يكون هناك دار للعلم ، وقد تم ذلك فان سابور ابن اردشير أنشأ داراً للعلم في بغداد وأنشأ الحاكم بأمر الله مثلها في القاهرة ، وبنو عمّار على نحوها في طرابلس ، وأنشئت أمثالها في البلدان الأخرى . وكانت الغاية الاولى من هذه الدور حفظ كتب العلم الأصلية وعرضهـا للمطالعة ، ولكن حصل آنذاك شيء أضيف إلى صفتها هذه صفة ثانية صفة المدارس ، فكان يلقى فيها دروس في العلم والذي أضاف اليها صفة المدرسة أن الناس كانوا في حاجة كبيرة إلى الدرس على أساتذة عالمين ، وأصبحت المساجـد تضيق بالدروس ، ولم يكن هنالك بعد مدارس فأقبل الناس مضطرين الى دور العلم يتلقون فيها الدروس عدا عن قراءتهم فيها للكتب وذلك أمر طبيعي

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

لامكان للاستغراب منه ، على أنه فريد في نوعه .

وبعد أن أنشئت المدارس في البلاد العربية وانتشرت أي بعد انتهاء القرن الخامس شرعت دور العلم في الاختفاء ، وظهر مكانها دور الكتب بمعناها الحقيقي ، ووافق هذه الحركة توسع العلم وانتشاره بين معظم طبقات الشعب فكان من الواجب إذن أن تخصص له وسائط عامة ، وكان الأمر كذلك في في هذه الدور ، فكان يرى في كل بلدة عدد كبير منها منتشراً في الاحياء المختلفة يعمل على تثقيف الشعب وانماء مداركه .

ولكن يا للاسف لم تدم هذه الحركة طويلا فقد قضى التتر الفاتحون على هذه الدور وأحرقوها ودمروها وعاثوا فيها فساداً ، ولم يشأ الحكام الذين استولوا على البلاد بعد هذه الفتوح أن يعم العلم مرة ثانية في طبقات الشعب ، فالعلم نقمة على الظالم تضرب على يده مهما كانت قوية ولم يكونوا بقادرين على أن يقضوا على العلم قضاء تاماً ، لأنهم دخلوا في الاسلام ، ولأن الجهل مهما بلغ بالناس فلا يأتي على عقيدتهم الراسخة ، فاضطروا إلى حصر العلم بطبقة خاصة من الشعب يغدقون عليها إنعامهم فتبقى وفية لهم ، فأنشأوا المدارس الدينية ، وكذلك شرعت دور الكتب في الاختفاء ملتجئة إلى هذه المدارس التي كانت قسماً منها في السابق ، ومنذ ذلك التاريخ أي من أوائل القرن الثامن أصبحت لا تجد مكتبات عامة إلا في المدارس ، ودام الامر على ذلك حتى أواخر القرن الماضي .

وفيه شرع في إنشاء دور كتب عامة ووافق ذلك نهضة حديثة شرعت تنتشر في بلاد العرب قاضية على ظلام الجهل : ولكننا رغم ذلك لا نزال نشاهد دور كتب عظيمة الأهمية محصورة في مدارس قديمة هي تراث الماضي ، على أن التطور الذي ذكرناه سوف يقضي عليها حتما ويجعلها تلتجيء إلى دور الكتب العامة ، ففيها تظهر قيمتها وفيها يقبل عليها الباحثون بالدرس والتمحيص والنشر .

إن دور الكتب العربية كما ترى سارت مع روح العصر ووافقته موافقة

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

تامة وقامت بما عليها حق القيام ، فمن دار للحكمة نشرت علوم الأقدمين ، وأتت عليها بالترجمة إلى دار للعلم أساس أمرها الكتب والمطالعة ، ولكنها لم تخل من التدريس ، إلى دار كتب عامة بمعنى الكلمة ، ومنها التجأت إلى المدارس لتكون الاساس للمدرسين يسترون بها جهلهم ويعتمدون عليها في إلقاء دروسهم ، ومن ثم عادت الى حياتها الاستقلالية فشكلت لنفسها كيانًا خاصًا ، واستعادت اسمها القديم : دار الكتب .

إن بحثنا هذا يقودنا إلى ان نقول بأن دور الكتب التي أسست في عصرنا هذا والذي قبله هي تراث الماضي لا تختلف عن المدرسة بشيء ، وقد يعتاض بالواحدة عن الأخرى وتتبادلان بالخدمة فهي لذلك ولنتيجة التطور الذي وصلت اليه مدعوة إلى خدمة كبرى ، إلى عمل قومي فيه تثقيف مختلف طبقات الشعب ، فهي عامة قبل كل شيء ، ولا يتم تثقيف هذه الطبقات الا بها ، فيجب علينا إذن أن نؤهلها إلى هذا العمل وأن نهيء الأسباب لتقدمها وأن لا نشل حركتها ، وبذلك نكون قد برهنا أننا أمة تغتنم الفرص وتسير مع التطور ولا نقبل الخذلان في مادة العلم .